

الثقافة العالمية والخصوصية

فيما يلي نعرض بعثين يتطرقان الى قضيتي «الثقافة العالمية» و«الخصوصية». غير أن كاتب البحث الأول (وهو مفاربي، بل تونسي، على الأرجح) أفضل ذكر اسمه في أول بعثه وفي نهايته، أو ما قد يكون نهايته. ولذلك فإننا نكتفي الآن مؤقتاً بوضع علامة استفهام مكان اسمه (؟) الى أن يوافينا به في رسالة قادمة... مع الامتداز إليه، وإلى القارئ الكريم.

١ - الثقافة من بؤس الذاتية إلى شراسة الكونية

بقلم: (؟)

ولكن ذلك لا يدفع إلى الاعتقاد بأن الفولكور قوام الذاتية، وإن ضُخِّم الاعتناء به. ولأجل ذلك تبقى الخصوصية وهماً في عالم تقاربت قاراته واتَّصل بعضه ببعض اقتصادياً واتصالياً ومعلوماتياً.

ولا مجال، في أولى هذه الملاحظات، للنظر في الأسباب التي بموجبها تطلَّت الثقافات المحليَّة. ولكن لا بأس من الإشارة إلى أن التحولات الكبرى التي شهدها العالم في هذا القرن - وكانت من رحم نقلات نوعية جبَّارة في فهم الكون، وتأسيس رؤية جديدة للإنسان والوجود في القرون السابقة عليه - قد كان لها النفوذ الهائل في تحجيم الحضور الثقافي المحلي وتوسيع مجال الثقافة الكونية.

ولا بأس أيضاً من التنبية إلى أن مفهوم الثقافة الكونية قد كان في الأصل مفهوماً خاصاً بالثقافة الأوروبية أولاً والأمريكية ثانياً. ذلك أن التحولات التي ذكرناها تمَّ تنفيذها في بيئة حضارية أوروبية كانت قد تهيأت لتُحْبَل بالمدلولات الجديدة ولتُخَصَّب المفاهيم التي غيَّرت بنية العقل الأوروبي تغييراً جذرياً، وقلبت رأساً على عقب تيارات فلسفية كانت تُخْلِص لقيم وأخلاق وجماليات تمنع انطلاق النص نحو تمثُّل الواقع والتاريخ والإنسان تمثُّلاً فلسفياً ثورياً أي حديثاً.

وهل من سبيل إلى الموضوعية التاريخية دون التذكير بأمر ذي شأن، وهو أن إبداعات العقل الغربي، التي أطاحت ببنى الثقافة المسيحية/الإقطاعية^(٣)، قد كانت المحرك

ليس من شك اليوم في أن الحديث عن الثقافة^(١) المحلية أو القطرية، بل القومية نفسها، أضحى يفتقر إلى الإحاطة بما تُعرف به تلك الثقافة، لأنها أصبحت تستعصي على التحديد وتتفلت من الضبط والتدقيق. ولعلَّ من عوامل الاستعصاء الرئيسية أن الخصوصية أو الذاتية أو التميز لم تعد قرائنها وعلاماتها تُدرَكُ بيسر.

والراجع أن التشكيلات المشهدية الفولكلورية لا تنتمي جدياً إلى حقل الخصوصية الثقافية، وإنما يقتضيها ظرفاً حضاري عصيب أو موقف سياسي خاص. ومن مشاهد الفرجة الفولكلورية: المأكَل والملبس^(٢). وقد يمتد الحرص على إظهار المشهد الفولكلوري إلى المدى القومي، فيجعلهُ كيانات متنافرة، يغذي صدامها وهم التمايز، فيُضحي الأمرُ مفخرةً بالتشبث بالجذور ولعبةً سياسية تكتسب بها الجهات المعنية مزيداً من الشرعية، وهي من حيث تدري أو لا تدري تهتك اللحمة الثقافية الأوسع وتساعد على تغذية النعرات القطرية، في الوقت الذي تعلق فيه صيحات الانتماء الواسع إلى تراث واحد ومستقبل واحد.

١ - الثقافة مفهوم عُرف من أكثر من زاوية نظر نفسية واجتماعية، ماركسية وغربية. ويعنينا من كل ذلك أنها: مجموع ثمرات الفكر في ميادين الفن والفلسفة، والعلم والقانون. راجع مثلاً: مالك بن نبي «مشكلة الثقافة» الرواية، تونس [د. ت.].

٢ - نقصد، خاصة، الأزياء التقليدية والدينية. راجع مثلاً عن حرص طوائف يهودية على الظهور أمام العالم في هيئة مميزة: عبدالله رشاد الشامي «القرى الدينية في إسرائيل»، عالم المعرفة، عدد ١٨٦، سنة ١٩٩٤، ص ٢٠١. وراجع عن بعض التيارات الأصولية الإسلامية كتاب Gilles Kepel: La revanche de Dieu, Ed. Seuil, ١٩٩٠، ص ٥٧ - ٥٨.

٣ - راجع، مثلاً، عن تأثير فلاسفة النهضة الأوروبية في الواقع المسيحي/الإقطاعي/الملكي، جان جاك شاتليه في كتابه المتميز: تاريخ الفكر السياسي: من المدينة الدولة إلى الدولة القومية (ترجمة محمد عرب صاصيلا. المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ١٩٨٥).

الجوهري لظهور وضع مالي ومادي جديد ولبروز أقطاب صناعية تعتمد على الآلية المتطورة، وتنهض على نسيج عملي تصنيعي ضخم، وتركيز إيديولوجيا مصاحبة تقوم على الحرية بما هي مقوم من مقومات الفلسفة الحدائيه المبدعة؟

ولا مناص، هنا، من استحضار الليبرالية^(١) باعتبارها حاضنة تلك المفاهيم، وحامية تلك المنجزات المادية، والقيوم على المعيار الذي تتراءى فيه الملكية الفردية وفقاً غزيراً لتوسيع مجال المعارف، وتحقيق أقصى ما يمكن من المنافع.

وتحسن الإشارة، في هذا الصدد، إلى أن علمين بارزين واكبا ثورة المعارف وأسهما في فتح أبواب نعتبرها المنافذ التي اتسعت بها دائرة الثقافة الأوروبية، وصارت تشرّيباً إلى آفاق بعيدة، وتغري النفس بالخروج من ضغط السّياج الجغرافي. وهذان العلمان هما: الاستشراق والانتروبولوجيا. وربما تقاطعت اهتماماتها فأُتري أحدها الآخر. أما الاستشراق فَبَحَث في الإنتاج الثقافي الشرقي، وذلك من خلال تحقيق أمهات المصنّفات التراثية ونشرها ودراستها قَصْدَ الحصول على ملامح شخصية الشعوب المدروسة لتمثّل نظمها وبُناها الذهنية والاجتماعية والسياسية^(٢). وأما الانتروبولوجيا، بروافدها الاجتماعية والثقافية والسياسية، فاتجاه بحث حَقْلِيّ أولاً، واستنباطي، ثانياً، الهدف منه دراسة المجتمعات المعتمّرة بدائية وُقْحَصْ نُظْم عيشها وعلاقاتها ومبادلاتها المادية والرمزية^(٣).

ومن ناقل القول الحديث عن الصلات الصريحة أو الخفية التي بين هذين العلمين من جهة وبين تطّعات الغرب «العقلاني» الممتلى بنفسه، والمتطّلع إلى الانتشار والإغارة على الشعوب المتخلفة، امتصاصاً لِكُنُوزها وترويجاً لِمُنْتَجَاتِه الثقافية والعملية.. فليس الشرق سوى ضرورة حضارية، بعبارة أرنست رينان!

لقد كان لهذين العلمين الدُعْم القوي حين وقّرا للغرب خارطة دقيقة لثقافة الشعوب التي وقع عليه اختيارها لاقتحام بُناها ونسَفِ نظمها. فلقد ملك الغرب مفتاح الكون بفضل الاكتشافات التي شرع فيها منذ القرن السادس عشر أساساً وتبلورت بصورة النّسق؛ فكانت الفتوحات يشدّ بعضها برقاب بعض، ويهيئ كلُّ مجال لإخصاب المجال الآخر في تفاعل لا ينتهي. وعلى الضّفاف كان الشّرق ينتظر لحظة الإغارة، وقد صار الغرب يضيق بأرضه فيطلب توسيعاً لها، حتّى لكان نهضته أكبر من حدوده وقُوّق أن تضبطها جغرافيته. وبالتالي فإنّ «الحديث عن أوروبا السابع عشر والثامن عشر هو حديث عن حضارة تتنامى مقوماتها وتنتظر إلى ذاتها وإلى العالم من زوايا مختلفة تماماً؛ ذلك أن أوروبا بدأت تؤسس القواعد البنيوية لمشروع اقتصادي واجتماعي ذي نزوع كوني^(٤).

تُوجَدُ إذن حركتان اثنتان تطبعان النهضة الأوروبية: الحركة العلمية النظرية والحقلية، والحركة الاستعمارية التوسعية. وفي هذه الحدود الزمنية والحضارية لا يمكن الحديث عن ثقافة إنسانية كونية، وإنما الذي كان يحدث بالضبط هو التصادم بين ثقافتين من خلال اللقاء المباشر بينهما: كانت الثقافة الغازية تُخضع المغرور بما تُذيع فيه من اليات الهيمنة... وكانت الثقافة المغرورة تنكمش على نفسها وترتدّ تبحث في ثناياها عمّا تصون به وجودها المفكك، ولكنها في الوقت ذاته كانت تنظر إلى الوافد بشيء من الدهشة فتستغرب عظمته وتتساءل عن سرّها وعن شرعية القبس من إبداعه المذهل.

وشيناً فشيناً سينشأ التّسأل، وستتخفّف علاقة المصادمة من عنفها المادي على الأقل، مقابل مضاء شوكة العنف الرمزي والمعنوي، وسيُصبح الاحتذاء حذو الغالب أمراً جارياً من خلال التّشريع له، وذلك ببيان المصلحة منه والإلحاح على وجوه الحاجة إليه.

نسبة إنتاج الكتب العربية من مجموع الإنتاج العالمي أقل من ١%

١ - من الدراسات التي تناولت «الليبرالية» بعمق كتاب Georges Burdeau: Le Libéralisme، مطبوعات Seuil، ١٩٧٩.

٢ - مزيد من التّوسع يمكن العودة إلى إدوارد سعيد: الاستشراق (ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٧٧). وكذلك إلى مقال أنور عبد الملك: «الاستشراق في أزمة» (ترجمة حسن تبيسي، مجلة المستقبل العربي، السنة الخامسة، آذار ١٩٨٢). وكذلك إلى مقال علي شعيب: «الاستشراق وكتابة التاريخ» (مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد مزدوج ٧٠ - ٧١، سنة ١٩٨٩).

٣ - مزيد من التّوسع يمكن العودة إلى كلود ليفي سترأوس: الفكر البرزي. ترجمة نظير الجاهل.. وكذلك إلى جورج بالاندييه: الانتروبولوجيا السياسية (ترجمة جورج أبي صالح. مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٨٦).

٤ - محمد نور الدين أفاية: المتخيل والتواصل - مفارقات العرب والغرب (دار المنتخب العربي، بيروت، ١٩٩٣، ص ١٠٤).

وليس بدءاً، هنا، القولُ إنَّ التقليديين ودُعاةَ المحافظة على الذاتية قدَّ فَقَدُوا كثيراً من مواقعهم رغم ما كانوا يُوجِّحونه من خصومات وما يبتئونه من تبديد أو تكفير، ورغم إصرارهم على ما كانوا يدعون بأنه ضمير الأمة وعنوانُ بقائها.

لقد قرَّر ابن خلدون منذ عهد بعيد أنَّ مال المغلوب تقليدُ الغالب، بقطع النظر عن مترتبات ذلك، وأنَّ ذلك المال ضرورةٌ وحتميةٌ نفسيةٌ وتاريخيةٌ لأنَّ المغلوب - وقد أصابه الوهنُ وأدهشته الغازي المتطورُ - ليس من سبيلِ سالكةٍ أمامه سوى إقناع الذات بالاندماج في ثقافة الغالب أو الاقتراب منها قَصْدُ فهم اليّات إنتاجها المعارف، وقَصْدُ الوقوف على العوائق الذاتية التي عرقلت الشرق فلم يَحْزُ ما يصدُّ به الغازي وتقدُّمه.

وهكذا تشكل السؤال المنهجي واللفسفي المركز (وقد فقد حرارته بحكم ما لاكته الألسنُ وتَحَبَّرت به الصحائفُ) عن سبب التقدم وعن معوقاته. والظاهر أنَّ التوجُّه الأكثر فاعليةً في السعي نحو نحت ملامح الثقافة الشرقية الراهنة هو الذي رأى الإفادة من الآخر مطلباً ملحاً يُدخل الشرق حركة التاريخ وينتشله من غيبوبة حضارية طال أمدها. وقد نهض

بهذا التوجُّه - الذي صار خطاباً - أعلامٌ مشهورون سواء أكانوا من أولئك الذين وُضِعوا في خانة السلفية العقلانية^(١)، أم من أولئك الذين نبذوا الأفتنة وأعلنوا آراءهم صريحةً في غير مواربةٍ أو لُبس^(٢).

ولا أَحْسَبُ أنَّ المرءَ يذهبُ شططاً حين تلوح له دعواتُ هذا الاتجاه عاجزةً عن التحول إلى مشاريع نقدية حقيقية وإلى بدايات تأسيس معارف حديثة تكون الأرضية الخصبة التي تحمي الشرق من نفسه ومن غيره: تحميه من نفسه بإخراجه من جموده وجَهْلِهِ وماضويته الزائفة... وتحميه من غيره المُقبل علي بشرائه المُبْتَرِّ الذي يسعى إلى إبقاء الشرق حيث هو وإلى جعله مستتباً وممحوُ الذاكرة الحية المنتجة:

وقد يُبدي نحوه اهتماماً فيصوِّره مشوَّهاً ويخرجه إخراجاً عجيباً، ومُسْتَنَدُهُ في ذلك هو البعدُ الغرائبي وما ينطبع في مخياله عما يعتقد أنه الشرق^(٣). فيلوح الشرق «في الوعي أو اللاوعي الغربي مزدوجاً: شرقاً مُلغى كمجتمع وكحضارة، وشرقاً معترفاً به كأسطورة وكحلم»^(٤).

دعواتُ التحديث، إذن، اختراقٌ جريءٌ للذهنية العامية وعلامةٌ وعي بأنَّ الحضارة لا تكون إلا إذا كانت حركيةً إنتاجيةً متناميةً، ومتطلعةً دوماً إلى المستقبل وجهةً، وإلى عقلنة التعامل مع الإنسان والأشياء والتاريخ منهجاً، وإلى جعل الإنسان من حيث كونه فرداً حراً غايةً^(٥).

ولكنَّ هذه الدعوات، كما المعنا سابقاً، لم تدرك الهدفَ الأسمى، وهو خلق عقليةٍ جديدة بدل الذهنية السائدة. فهي سرعان ما تحولت إلى تيار ثقافي دعائي لا يتجاوز في أكثر الأحيان الاحتفاء بالشعارات وإقامة المهرجانات الخطابية. وهذا التيار، حين انزلق إلى هذه المتاهة، فقد عمقه، أي مداه الفلسفي، فأضحى إيديولوجياً سياسيةً هدفها مهاجمة الثقافة العامية عوض مساعدتها على التحرر من أغلالها^(٦)؛ والأصل أن ينصبَّ كلُّ جهده على محاولة عقلنة التصور والسلوك. ولا يمنع ما كنا نتناوله من قيام نسيج من المدارس الحديثة ورغبة في اعتماد مناهج قوامها: الملاحظة والتحليل والاستنباط لتدريس المعارف العصرية. كما تبع ذلك إنشاء مؤسسات جامعية في اختصاصات متنوعة^(٧) ترمي فلسفةً بعثها إلى قلب التصورات البائسة وتكوين متعلم قادر على التعامل مع العصر وتعميق النزعة النقدية والعقلية التي شرعت المدرسة تصقل بها روادها.

والثابت أنَّ ذلك لم يُنتج الثمارَ الموعودة ولم ينجح نجاحاً محموداً في تنفيذ مخططاته. وربما لم نجد في الشرق، بحكم الذهنية الرائجة، حماساً من بعض السياسات الوطنية إما

هل «الثقافة

العالمية»

تخدم العالم،

وهل «الكوني»

اليوم ثقافة أم

إيديولوجيا؟

١ - من أمثال الأفغاني وعبيد ورشيد رضا وخير الدين التونسي وعلي عبد الرازق.

٢ - من أمثال لطفي السيد وطه حسين وسلامة موسى ومتقفي لبنان من المسيحيين.

٣ - راجع دراسات مهمة تُعنى بالمتخيل الغربي وكيف رسم الشرق، لصاحبها Thierry Hentsch.

٤ - محمد نور الدين أفاية: المتخيل والتواصل، مرجع سابق، ص ١١٠. (Minuit, ١٩٨٨).

٥ - راجع عن «الفردية» في النهضة الغربية G. Burdeau في كتابه السابق نكره. فصل «L'individualisme»، ص ٨٨، وما بعدها.

٦ - راجع عن العلاقة المنتجة بين الثقافة العالمية والثقافة العامية وموقعها في قضايا النهضة العربية، مجلة الحياة الثقافية، عدد ٧٤، أبريل ١٩٩٦.

٧ - أنظر نسيج الجامعات العربية في مقال يوسف حلباوي «تحديث مؤسسة التعليم»، مجلة الوحدة، عدد ٨٥، أكتوبر ١٩٩١، ص ٦٤.

لانعدام المؤسسة التي هي من وحي فلسفة حداثة حقيقية، وإما لانصراف بعضها إلى التآكل مع بعضها الآخر في نزاعات عديدة مصطنعة، ملياً أو دولياً لأسباب متنوعة.

وإنَّ ظهور إحصائيات قامت بها جهات مختصة أو أنجزها باحثون مدققون من شأنها الكشف عن علاقة العالم بالمعرفة إنتاجاً واستهلاكاً، وعن حظ الشعوب المتخلفة من ذلك. وليس أمام الدارس المقارن إلا أن يذهل للهوة الصارخة بين الغرب والشرق: فقد أعلنت اليونيسكو أن نسبة إنتاج الكتب العربية من مجموع الإنتاج العالمي لم يتجاوز سنة ١٩٧٠، ١.٨٪، وستتقهقر النسبة ١٩٨٦ لتتزل إلى مستوى ٠.٩٪ «وهي نسبة صادمة على أكثر من صعيد بالقياس إلى عدد السكان وإلى ضخامة الشعارات التي لا تكف السلطة العربية عن تكرارها»^(١). ويمكن رصد النصيب الثقافي العربي في مسائل أخرى كالجراند والورق والأفلام والراديو والتلفزة^(٢). وإنَّ مثل هذه الإحصائيات على غاية من الأهمية لأنها تسلط الأضواء على الإنتاج من جهة وعلى الاستهلاك من جهة ثانية، ونعتقد أن الانتباه إلى العلاقة الجدلية بين الإبداع والإقبال عليه محراراً تقاس بفضله درجة ثقافة شعب من الشعوب، لأنَّ «دور العلوم في النهوض بالمجتمع لا يقل أهمية عن دور المجتمع في تطوير العلوم والتقنيات. وهذا الترابط الجدليّ يقدم صورة جلية عن أهمية العلم والتكنولوجيا في تجديد المجتمع إما مباشرة وإما بكيفية غير مباشرة. كما أن تنمية منظومة العلوم والتكنولوجيا العربية ودمجها العضوي بالمجتمع يشكّلان جزءاً رئيسياً من المشروع الحضاريّ المتكامل للمجتمع»^(٣).

وليس المقام يسمح، هنا، بالتدقيق في حدود النجاح وأسباب الإخفاق، وإن كنا لا نود أن نمُر على الأمور دون الإشارة إلى أن اختلافات عميقة شقّت الدراسات الخائضة في الثقافة التحديثية. ومنتخب رأيين من جملة الآراء، أحدهما يرى العلة في عدم الانسجام بين الواقع الاجتماعي من ناحية ومرجعيتي التحديث التربوي من ناحية ثانية: «[إنَّ] النظام التربوي... في شكله ومحتواه وطرائقه نظامٌ وافر وغير مرتبط بالنظام الاجتماعي المعاش [كذا]. ولقد نشأ النظام التربويُّ

الحديث مع فترة المدّ الاستعماري ليحقق مصالح النخبة ويُزيّف ووعي الناس»^(٤). وأمّا الرأي الثاني فيحصر المآزق في اللغة، لأنَّ العربية ليس لها الإشعاع الذي يجعلها تُسهم في صناعة الثقافة العالمية: «[إنَّ] الانتماء اللغوي العربي هو أكبر حاجز اليوم ضدَّ الثقافة لأنَّ كلَّ ما يُعمل اليوم من مؤلفات في هذه اللغة لا يقدّم ولا يؤخّر، في شيء، في الحضارة العالمية. ربّما كانت له، بمعنى ما، فائدة محلية لهذا المجتمع العربي فقط. أمّا إذا كان عند أحد المبدعين فكرة أو نتاج فنيّ، فلا بدّ له كي يُوصَلَهُ إلى الآخرين، من لغة أجنبية... لذلك فإنَّ كلَّ الأعمال الفكرية والفنية عندنا هي محلية ليس لها دور في الحضارة العالمية»^(٥). ويتمادى هذا الرأي في نزعة تشاؤمية عميقة، فيقترح مفتاح الدخول إلى الحضارة العالمية: «إذا كان العرب يريدون أن يتماشوا مع حضارة القرن العشرين - ناهيك بالقرن الواحد والعشرين - فالأجدى بهم أن يترجموا الروائع الأجنبية... لا أن يؤلّفوا»^(٦).

يقطع النظر عن التوتر الحادّ في الشاهديّين المذكورين وعمّا فيهما من مبالغة وهينات واضحة، فإنَّهما يحيلان على الوعي بأنَّ الثقافة العالمية لا تتأثّر عالميتها من اشتراك شعوب العالم في تكوينها، وإنما تجيء من حيث كونها الثقافة الأقوى التي نجحت في أن تكون عالمية، أي أن يمتدَّ شأنها في كل أنحاء العالم وأن يقبل العالم - طوعاً أو كرهاً - الاندماج فيها والتلبّس بقيمتها ومعاييرها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ومن هذا الوعي بالمآزق وبقصور الثقافة الشرقية (وغيرها من الثقافات التي في وضعها) عن اقتحام العالم والتأثير فيه، لا بأس من ضبّط جملة من الأسئلة ليست بالضرورة جديدة وإنَّما خطورتها تتأتّى من أبعاد الدمج الثقافي في الكلّ الثقافي دون مساعلة الذات عن جدية إسهامها، وعن حضورها كيف يكون: هل هو حضور فاعل أم حضور رقميّ تزداد به الثقافة العالمية عتوّاً وتجبراً بما تفتكّه من الكيانات الرقمية من أصوات تابعة؟ وهل الثقافة العالمية تخدم العالم فعلاً أم هي ثقافة أمّة أو بعض أممٍ صارت الثقافة النّمودج بما تيسر لها من معارف واكتشافات وبما ملكت من سلطان إعلاميّ تواصلّي رهيب من خلال

١ - محمد نور الدين آفاية: المتخيل والتواصل، مرجع سابق، ص ٨٤.

٢ - راجع الجداول الدقيقة التي في مقال أحمد الرضاوي «الثقافة كصناعة»، مجلة الوحدة، عدد ٩٢، ماي ١٩٩٢، ص ١٠٠ - ١٠٤.

٣ - سالم يفوت في مقاله «التجديد العلمي ومآزق التبعية»، الوحدة عدد ٩٢، ماي ١٩٩٢، ص ٤٠.

٤ - شبل بدران في مقاله «غزو ثقافي أم تبعية ثقافية»، مجلة الوحدة، عدد ٩٦، سبتمبر ١٩٩٢، ص ٩٣.

٥ - عادل فاخوري: «الهوية - لعبة الانتماء»، مقال منشور في مجلة مواقف، عدد ٦٥، خريف ١٩٩١، دار الساق، لندن، ص ٥٢ - ٥٣.

٦ - المرجع نفسه، ص ٥٣.

قنوات الاتصال والأقمار الصناعية التي تُمطر العالم في كل حين وأن بالأخبار والمواقف والتأويلات: إمّا تراه حسناً فتحسنه وإمّا تراه سيئاً فتُبشّعه؟^(١) ولكن السؤال الأهم في نظرنا اليوم هو: هل الكونيُّ اليوم ثقافة أم أيديولوجيا؟

كان العالم قبل الحربين وأثناءهما يُهيمن عليه الغرب الأوروبي. ولم يكد العالم يطوي صفحات الحرب حتى ظهرت أمريكا يُغريها العالم الممزق فتتقدّم إليه تأخذ منه مساحات، لا من ترابه، ولكن من عقله ووجدانه. ولم يمرّ طويل وقت حتى

كان العالم بين ثقافتين كبيرتين نزاعيتين

إلى الهيمنة وهما: الأمريكية الرأسمالية والروسية الشيوعية. وبدأ ما يُسمى بالحرب الباردة: صراع أيديولوجي قويّ ممتدّ إلى الشعوب المتخلفة يحاول أن يصطنعها إمّا لحساب هذه القوة وإمّا لحساب تلك. وقد كانت حركات التحرر القوميّ، مع عمق إيمانها بقضاياها الوطنية، لا ترى ضيراً من النسج على منوال الكتلة الشيوعية أو الكتلة الرأسمالية؛ وإنّ شئنا التدقيق قلنا إنّ تلك الحركات كانت مبهورة أو متأثرة إمّا بالشيوعية وإمّا بالرأسمالية. ولا تعيننا النتائج المحصّلة لأنها ليست من أهداف هذه الدراسة، ولكننا أحببنا فقط أن نتابع بسرعة المسار التاريخي الذي سيفرز لاحقاً الثقافة العالمية.

إلى حدود ما انتهينا إليه، إذن، وقفنا على ما مفاده أنّ النهضة الأوروبية أنتجت ثورات علمية ورعتها فلسفة تنتصر للإنسان. كما وقفنا على أمر آخر وهو أنّ النهضة الأوروبية كوَّنت بنية اقتصادية ضخمة وفضلاً من السلع العملية. ووقفنا أيضاً على أمر ثالث ناشئ وهو الحركة الاستعمارية التي من مخلفاتها بروز الكتلتين المذكورتين وأنجذاب حركات التحرر الوطني إليهما. ومن المهم أن نشير إلى أمر رابع هو أن الحضور الأوروبي قد تراجع أثناء الحرب الباردة، وظلّ فيها الشرق مستضعفاً لا إسهام فعلياً له في تشكيل ملامح العصر*.

٢ - العولة الثقافية...

بقلم: حواس محمود

لم تعد الثقافة اليوم خاضعة لوسائل تقليدية في النشر والانتشار، وإنّما أضحت متأثرة إلى حد بعيد

بالتكنولوجيا عامة والتكنولوجيا الاتصالية خاصة. ومن هنا جاء مصطلح «العولة الثقافية»، ويعني قدرة الثقافات الأقوى تكنولوجياً على السيطرة على الثقافات الأضعف تكنولوجياً؛ ويعني بصورة أوضح محاولة مجتمع ما تعميم نموذجه الثقافي على المجتمعات الأخرى من خلال التأثير على المفاهيم الحضارية والقيم الثقافية السلوكية لأفراد هذه المجتمعات، وذلك بوسائل سياسية واقتصادية وثقافية وتقنية متعددة.

وتهدف العولة الثقافية إلى زرع قيم القوى المسيطرة وأفكارها في وعي الآخرين، وعلى الأخص أبناء المجتمعات العربية، وإلى فتح هذه المجتمعات (أو اختراقها ثقافياً) وإسقاط عناصر الممانعة والمقاومة والتحصين لديها. وتستهدف بالمعنى الثقافي الحضاري إعادة صياغة قيم وعادات جديدة لهذه المجتمعات، ووسيلتها الأساسية في ذلك أداة إعلامية جبارة. وإذا كان عالم النفس الأمريكي الشهير «سكينز» قد أشار قبل عقود في كتابه «تكنولوجيا السلوك الإنساني إلى إمكانية ضبط سلوك الإنسان بالطريقة التي يُضبط فيها سلوك حيوانات السيرك، مركزاً على دور الأسلوب المشوّق والجذاب في ذلك الضبط، فإنّ العولة الثقافية أصبحت تمارس نوعاً من التحكم بسلوك الأفراد والمجتمعات رغم بعض أشكالها الجذابة.

ولهذا لم يعد مستغرباً أن تمتلك بعض المحطات التلفزيونية الفضائية موارد تفوق ميزانيات بعض الدول النامية، أو أن تصل ميزانية فيلم سينمائي إلى مئات الملايين من الدولارات. إنّ مراكز المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات هي التي تمتلك اليوم مفاتيح الثقافة، ولذلك نجحت الدول الغربية في نشر ثقافتها عبر المحيطات والقارات، والترويج لأفكارها وقيمها الثقافية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية على حساب اكتساح الثقافات الوطنية. ويُعتبر اكتساح الثقافات الوطنية نقطة رئيسية من ثلاث نقاط لتبيان آثار العولة الثقافية، وقد حددها المفكر الدكتور برهان غليون في ندوة عقدت في القاهرة عام ١٩٩٦ بعنوان «مستقبل الثقافة العربية»، حين قال إنّ العولة الثقافية تقوم بتعميم أزمة الهوية، فيتضاءل - مع تزايد الثقافات الأقوى في فضاء

بعض المحطات التلفزيونية الفضائية تمتلك موارد تفوق ميزانيات بعض الدول

١ - راجع مثلاً عياضي نصر الدين «الخطاب الصحافي في الاستعماري في ظروف الأزمة»، مجلة المستقبل العربي، جانفي ١٩٩٣.

* - إلى هنا ينتهي البحث، وإن كان السياق يوحي بأن ثمة أوراقاً ناقصة. فاقضى التنويه (الأداب).